

المصادر العبرانية لتاريخ تطاوين

د. عبد العزيز شهير
مؤسسة دراسات الشرق بالمغرب

هذا البحث مهدى إلى الأخ الدكتور امحمد بن عبود عربون تعاون علمي ممتد إن شاء الله.

لما كانت إعادة كتابة تاريخ مدينة تطاوين تقتضي تنحية النواقص والفراغات التي دعت إلى إعادة التفكير فيما كتب عنها من قبل، فقد رأينا في هذا البحث الوقوف على نوع من المصادر ظل غائبا فيما قدم من أبحاث عن هذا الثغر من ثغور المملكة المغربية. يتعلق الأمر هنا بالمصادر العبرانية التي ليست تكتفي بالتأريخ للطائفة اليهودية التطاونية بل تتجاوز ذلك للتأريخ لعامة المجتمع التطاوني وعلاقات هذا الأخير بالخارج وبباقي مدن المملكة الشريفة. وسوف نتبنى في مقاربتنا هذه نظرة عبرمنهاجية تنطلق من وجود مستويات متعددة للواقع تحكمها أنماط مختلفة من المنطق. ومحاولة اختزال الواقع في مستوى واحد محكوم بمنطق واحد يفضي بالضرورة إلى التشويه ومجانبة الحقيقة. وعليه فالواقع التطاوني لا يمكن أن يدرك من خلال نوع واحد من الوثائق؛ لأن كل نوع من الوثائق يقدم تاريخا بمواصفات معينة تحدد نظرة إلى العالم محددة، فالوثائق العربية مثلا تقدم تاريخا لتطاوين بمواصفات معينة، الوثائق الأجنبية تقدم تاريخا بمواصفات محددة، والوثائق العبرانية المغربية تقدم تاريخا بمواصفات معينة... إلخ، غير أن كل نوع من أنواع الوثائق الممكنة لتاريخ تطاوين لا يمكنه أن يعكس كل مستويات الواقع التطاوني منفردا. وعليه فإن التاريخ الممكن والقريب من الحقيقة ينبغي أن يتبنى مقاربة عبرثقافية تتجاوز إلغاء أو تهيمش أي مستوى يمكن أن يسهم في إدراك واقع من الوقائع الممكنة التي ترسم تاريخ تطاوين.

وقد رأينا أن نقدم هنا بعضا من الوثائق العبرانية الممكنة لإدراك جوانب من تاريخ تطاوين. وهذه الوثائق هي:

- 1 - وثائق الجامعة العبرية في القدس، وهي عبارة عن مجموعة من عقود النكاح تمتد لـ 142 سنة (من سنة 1815 إلى 1957).
- 2 - وثائق الاتحاد الإسرائيلي العالمي بباريس.
- 3 - شواهد مقبرة قشتالة (المقبرة اليهودية) بتطوان.

4 - وثائق آل الرزيني باعتبارها تمثل أكبر رصيد وثيقي خاص.
5 - سجلات الختان، وهنا أشير إلى أن واحدا فقط من هذه السجلات قد وجد طريقه إلى النشر، وهو سجل الختان لإسحاق السرفاتي، وقد نشرته وقدمت له الدكتورة أنا مريا لوبيث ألفاريث Ana Maria López Alvares تحت عنوان:

La comunidad judía de Tetuán 1881-1940, Onomástica y sociología en el libro de registro de circuncisiones del rabino Yishaq Bar Vidal Hasarfaty.

6 - مؤلفات أحبار تطاوين وبشكل خاص المؤلفات المتعلقة بالنوازل الفقهية وفي مقدمتها كتاب الربى إسحاق بن الوليد " فيومير إسحاق " وبعض الدواوين والمجاميع الشعرية مثل كتاب: سفر شيروت أو **Libro de los cantares** لباروخ بنطاطا (1881).

7 - سجلات الأرشفيف الملكي في لاهاي وسجلات البيع في البلاد التي هاجر إليها يهود تطاوين في أمريكا اللاتينية خاصة.

8 - وثائق خاصة: عقود، صور، لوحات زيتية، من قبيل ما عرض في جبل طارق ليعقوب زاغوري (1889-1980) Los Olvidados من صور عائلة المراس التي انتقلت من تطاوين إلى جبل طارق سنة 1720.

وفي التاريخ للجماعة اليهودية في تطاوين يمكن التركيز على:
أولا: التاريخ للجماعة اليهودية التطاونية في إطار المجتمع التطاوني باعتبارها مكونا من مكوناته وفاعلا من فعالياته.

ثانيا: التاريخ للجماعة في علاقاتها بباقي الجماعات المغربية اليهودية.
ثالثا: التاريخ للجماعة اليهودية التطاونية في إطار السياق السيفاردي بشكل عام وهو السياق الذي نسجت من خلاله هذه الجماعة شبكة علاقاتها الخارجية في الشرق وأوربا والأمريكتين. كما أن هذا الانتماء إلى السيفادية جعل الجماعة اليهودية التطاونية تعيش وضعاً خاصاً إبان احتلال الإسبان لمدينة تطاوين سنة 1859 وخلال خضوع شمال المغرب للحماية الإسبانية ابتداء من سنة 1912، والمعروف أن إسبانيا استغلت لافطة السيفادية لتجميع الجماعات اليهودية السيفادية تحت لوائها معتبرة هؤلاء إسبانيا منسيين ينبغي تأطيرهم وتجديد العهد بهم لخدمة التاج الإسباني.

غير أن التاريخ للجماعة اليهودية التطاونية لا بد وأن يضع في اعتباره سلسلة من المحطات الدالة التي شكلت فيما نعلم توجه الطائفة وعلاقتها بغيرها. وأول تلك المحطات دعوة الجماعة للحبر حاييم بيباس من مدينة فاس وقدم هذا الأخير إلى تطاوين سنة 1530 (5290 لبدء الخليفة) وتأسيسه

للبيعة التي سوف يطالها الهدم في أحداث سنة 1610. والمهم في هذه المحطة هو أن هذا الحبر سوف يرسي إطارا للجماعة اليهودية التطاونية جريا على عادات وقوانين قشتالة القديمة، وسوف يؤسس مجموعة من "اليشفات". غير أن هذا الأمر لا ينبغي أن يحملنا على القول بأن الجماعة اليهودية التطاونية بدأت مع الربى حايم بيباس، فقد كانت مرت ثلاثون سنة على وجود اليهود المهجرين من الأندلس بمدينة تطاوين، ويؤكد ذلك جانب من مقبرة القشتاليين بالمقبرة اليهودية بتطوان الذي ضم قبورا للمهاجرين الأوائل. والحق أن حايم بيباس حينما ورد على تطاوين كان استدعى من طرف أعضاء الجماعة اليهودية التطاونية، وعليه يمكننا القطع بأن تلك الجماعة كانت لها بيعتها وكانت لها مقبرة، أي كان لها تنظيم معين استدعى الربى حايم بيباس ليطمعه بحسب العوائد والقوانين القشتالية التي كانت قد طرعت لتكون أساسا مذهبيا للجماعات اليهودية المهجرة عن الأندلس والمستقرة بالمغرب. إن مهمة الربى حايم لم تكن من فراغ.

المحطة الثانية التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار أثناء التأريخ للجماعة اليهودية التطاونية هي المتمثلة في تأسيس سبع بيعات بين سنتي 1610 و 1790. وحينما نقول تأسيس بيعة نستعرض قيام داع للتأسيس، وجماعة تؤسس لها البيعة تفوق عشرة أفراد على أقل تقدير. وغالبا ما يرتبط تأسيس هذه البيع بسياق فكري وفقهي وصوفي جديد. وعلى هذا تقوم البيع المؤسسة بين ذينك التاريخين المذكورين دليلا على تعدد فكري داخل إطار الأنظمة القشتالية شهدته مدينة تطاوين، هذه الأخيرة التي سوف يطلق عليها أسم "أورشليم الصغيرة" مجازا لما سوف تعرفه هذه المدينة من سياقات فقهية وتعدد في الأخبار وكثرة بيع ويشيفات.

أما المحطة الثالثة، فتتمثل في تحويل الجماعة من ملاحها القديم "الملاح البالي" إلى الملاح الجديد. بأمر من السلطان مولاي سليمان سنة 1808. وعلى عكس ما قيل عن ذلك التحويل، وما تحدث عنه المؤرخون من تفكير للجماعة، فإننا نرى أن ذلك التحويل كان في مصلحة الطائفة خاصة وأن الملاح البالي كان ضاق على الطائفة، وإذا اعتبرنا عدد ساكنة الملاح في ذلك الإبان (تسعة آلاف روح) واعتبرنا رقعة الملاح المحاصرة بالسور وبحي المسلمين، فإننا نقطع بأن قرار السلطان مولاي سليمان كان في صالح الجماعة، أخرجها من المجال الضيق إلى جهة منفتحة تلائم تزايد أرواح ساكنة الملاح وتجعل تلك الساكنة قريبة من مزارعها المنتشرة خارج السور، كما تجعلها بجانب الباب الذي يفضي إلى مرفأ مارتيل حيث توجد المصالح التجارية لكثير من يهود تطاوين. أما ما كان من أمر بناء السلطان مولاي سليمان للجامع الكبير في حي

الملاح البالي فقد تم بعد انتقال الجماعة إلى ملاحها الجديد، وكان من الطبيعي امتداد حي المسلمين ليشمل الملاح البالي. وإذا اعتبرنا ما كان من معاملة هذا السلطان الخاصة للجماعات اليهودية المغربية، وهدمه لمسجد بني في مدينة فاس بأحجار بيعة يهودية استجابة لفتوى الفقيه التاودي بن سودة كما ورد في كتاب التواريخ لآل بن دنان، فإننا نستبعد تلك الروايات التي لفت خبر تأسيس الجامع الكبير وتحويل الجماعة اليهودية التطاونية إلى الملاح الجديد. إن أمر التحويل كانت تستدعيه ضرورة إعادة هيكلة مدينة تطاوين، وقد شملت حسنات هذا التوسيع الجماعة نفسها.

وتتجلى المحطة الرابعة في انطلاق هجرة الطائفة نحو جبل طارق ومليلية، وما عقب ذلك من ولوج الجماعة لعهد جديد سيجعلها تتفتح بشكل أوسع على العالم الخارجي، وستشهد هذه المحطة طرح عدة أسئلة تتعلق بهوية الطائفة، كما ستجد نوازل جديدة لم تألفها الطائفة من قبل مثل: نزلة إرث الهالك وراء البحر، وحصة المختفى الممكن عودته.. إلخ. ومع سنة 1824 سوف يفتح باب الهجرة نحو العالم الجديد في الأمريكتين، وسيكون للطائفة فضل تأسيس الكثير من الجماعات اليهودية في أمريكا اللاتينية خاصة. وقد وقفنا على شيء من ذلك في كتابنا "دراسات حول يهود تطاوين". ومن دون شك فسوف تمكننا دراسة أرشيفات البيع التي أسسها أفراد من جماعة يهود تطاوين في فينيزويلا والأرجنتين والبرازيل وغيرها من معرفة جوانب من أخبار تطوان وتاريخها خاصة وأن صلات هؤلاء بجماعتهم الأصلية ظلت وطيدة وموصولة.

أما المحطة الخامسة فقد تشكلت سنة 1860، وكان من أبرز سماتها حدوث ما سماه بعضهم بـ *La retrouvaille historique avec l'Espagne*، أما نحن فنرى فيه بداية تحلل الجماعة اليهودية التطاونية وبداية الانبهار بالآخر الأجنبي. وشهدت نفس المحطة تأسيس مدرسة الاتحاد الإسرائيلي العالمي في 23 ديسمبر 1860 وما أعقب ذلك من اندراج جزء من أعضاء الجماعة في السياق العام لليهودية العالمية والحركات السياسية اليهودية ذات البعد القومي.. وإذا كانت مدرسة الاتحاد الإسرائيلي قد ساهمت بشكل أو بآخر في تحديث مجتمع الجماعة اليهودية التطاونية فإنها ساهمت في القضاء على البنى التي حافظت على تماسك الجماعة منذ تأسيسها وسرعت وتيرة هجرة المتعلمين.

غير أنه كان لمدرسة الاتحاد الإسرائيلي في تطوان وجه تحديثي عمت آثاره العديد من الجماعات اليهودية بالمغرب وخارجه، وتضم وثائق الاتحاد الإسرائيلي بباريس معطيات عن خريجي وخريجات مدرسة الاتحاد الإسرائيلي بتطوان ممن عملوا أو عملن في سلك التعليم في مدارس الاتحاد بإسطنبول

وطرابلس والقاهرة وسوسة وتونس وطنجة والعرائش والصويرة وغير ذلك من المدن. فليون طوريل المزداد بتطوان في مارس سنة 1865 والحاصل على دبلوم الكفاءة عمل مديرا مساعدا لمدرسة الاتحاد في تونس سنة 1884، ومديرا لمدرسة الاتحاد في سوسة سنة 1893 ومديرا لمدرسة الاتحاد في الصويرة في سنة 1902 ثم مديرا لمدرسة الاتحاد بوهراة سنة 1909 ثم لمدرسة طنجة سنة 1910، أما شم طوب برينطي المزداد بتطوان في 1849/12/10 والحاصل على دبلوم الكفاءة في اللغة الفرنسية فقد شغل منصب مدير المستوطنات بفلسطين سنة 1900 وعين سنة 1894 مفتشا لمدارس الاتحاد الإسرائيلي بتركيا وبلغاريا وساهم في تأسيس مدرسة زراعية. أما صموئيل اللاوي المزداد بتطوان في 1874/12/4 والحاصل على دبلوم عال في الرياضة فقد عمل بتونس سنة 1893 وبسوسة سنة 1894 وبطنجة سنة 1896 وبالدار البيضاء سنة 1900 ثم بالأرجنتين سنة 1904، وشغل منصب مفتش لمدارس مستوطنة ماورييسيو بالأرجنتين ما بين سنتي 1906 و1913. وعملت السيدة مسودي اللاوي كورياط المزدادة بتطوان في 1881/01/8 والحاصلة على دبلوم عالي من مدارس الاتحاد بمدرسة الاتحاد في مراكش سنة 1900 وانتقلت إلى تطوان مسقط رأسها سنة 1904 والتحقت بزوجها بالأرجنتين سنة 1910 ثم عادت لتعمل في مدرسة الاتحاد بتطوان سنة 1919، بينما عملت كلير اللاوي بنشمول المزدادة بتطوان سنة 1870 مديرة مساعدة بمدرسة الاتحاد بتطوان سنة 1889 وعينت مديرة لنفس المدرسة سنة 1891 ثم مديرة لمدرسة الاتحاد بطرابلس سنة 1900، أما الأنسة لية كازيس المزدادة بتطوان في 1862/05/3 والحاصلة على دبلوم أولي فقد عملت مساعدة في اسطنبول سنة 1881 ومديرة لمدرسة الاتحاد في الدردانيل سنة 1889، أما سلطانة كوهين المزدادة في تطوان في 1899/11/11 والحاصلة على دبلوم عال فقد عملت مساعدة بمدرسة الاتحاد في الأسكندرية سنة 1917 بينما عملت ريكة كوهين المزدادة بتطوان في 1897/12/1 مساعدة بمدرسة الاتحاد الإسرائيلي بالقاهرة سنة 1916 وعادت لتعمل سنة 1920 بمدرسة الاتحاد في الدار البيضاء سنة 1920 وبمدرسة الاتحاد بتطوان سنة 1921 والصويرة سنة 1922.... إلخ.

وتمثلت المرحلة السادسة في مرحلة الحماية الإسبانية على شمال المغرب وما كان من اندراج شبه كلي للجماعة اليهودية التطاونية في سياق الحامي. ولم يكن هذا الأمر خاصا بجماعة يهود تطاوين فحسب بل سرى على جانب كبير من أفراد الجماعات اليهودية المغربية. وقد تحدث الكاتب الطنجي كارلوس دي نسري مؤلف كتابي "الإسرائيليون المغاربة ساعة الاختيار" و"يهودي طنجة

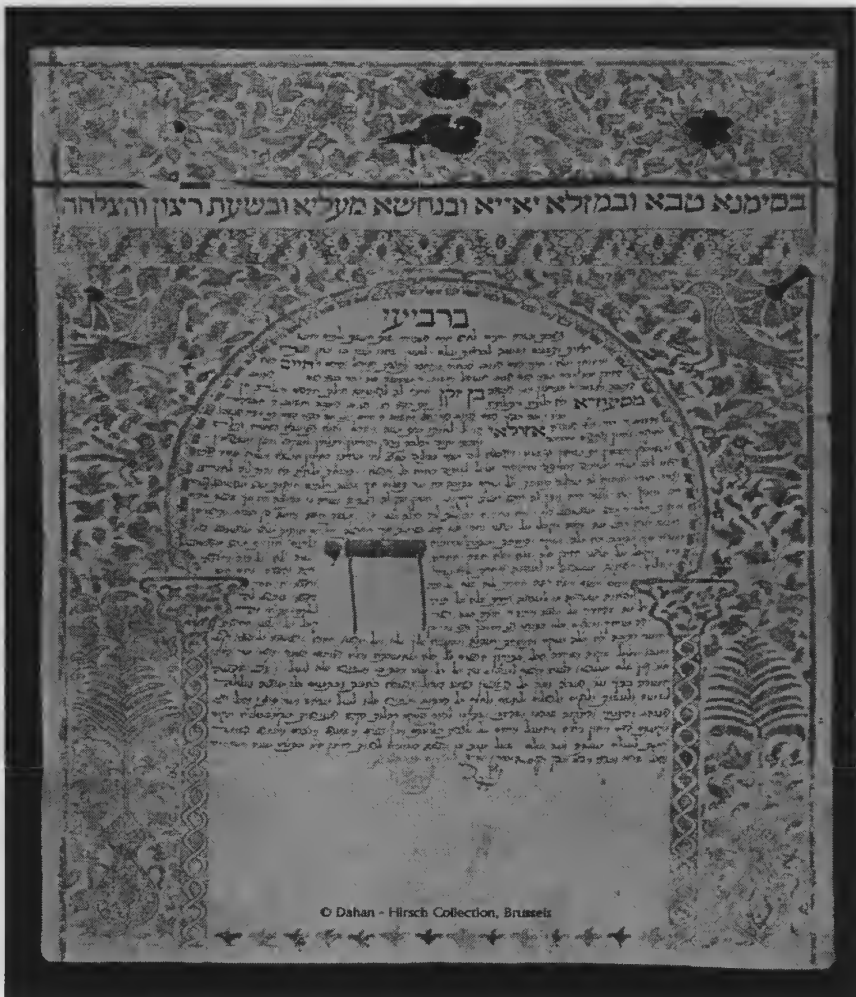
والمغرب" عن التحولات التي طالت الجماعة اليهودية المغربية في هذه الفترة، كما تحدث عن مسألة "فقدان المغربية" بالاندراج في سياسة وثقافة الحامي. وتمثلت المرحلة السابعة في بداية الاستقلال، وبينما طبع حلم إعادة المغربية فكر بعض أفراد الجماعة اليهودية التطاونية، سارع البعض الآخر إلى الهجرة بشكل أدى إلى انتفاء الملاح. وإذا كانت الجماعة قد تكونت سنة 1960 من 3103 روح فقد أضحت سنة 1990 تتكون من 200 روح، ليصعب توفير "المنيان" (النصاب = 10 أفراد) في مستهل الألفية الثالثة.

تضم وثائق المكتبة الوطنية / مكتبة الجامعة العبرية بالقدس مجموعة هامة من عقود النكاح "الكتوبة" 23 عقدا أنجز بين سنة 1815 وسنة 1957، وتغطي هذه العقود 142 سنة، وهي تسعف في ضبط سلاسل أسر جماعة يهود تطاوين، وتقدم معطيات عن اختلاط الجماعة بغيرها وما ينتج عن ذلك من شيوع أنماط ثقافية جديدة داخل الجماعة/ كما أن الصدقات المقدمة تعكس المستوى المعيشي لأفراد الجماعة وأيام الرخاء والشدة. غير أن أهم ما تسعف به تلك العقود معرفة توقيعات الأحرار والربيين والتي يمكن استثمارها في توثيق العقود الصادرة في مجالات أخرى غير الأنكحة. ونقدم هنا بعض النماذج من تلك العقود:

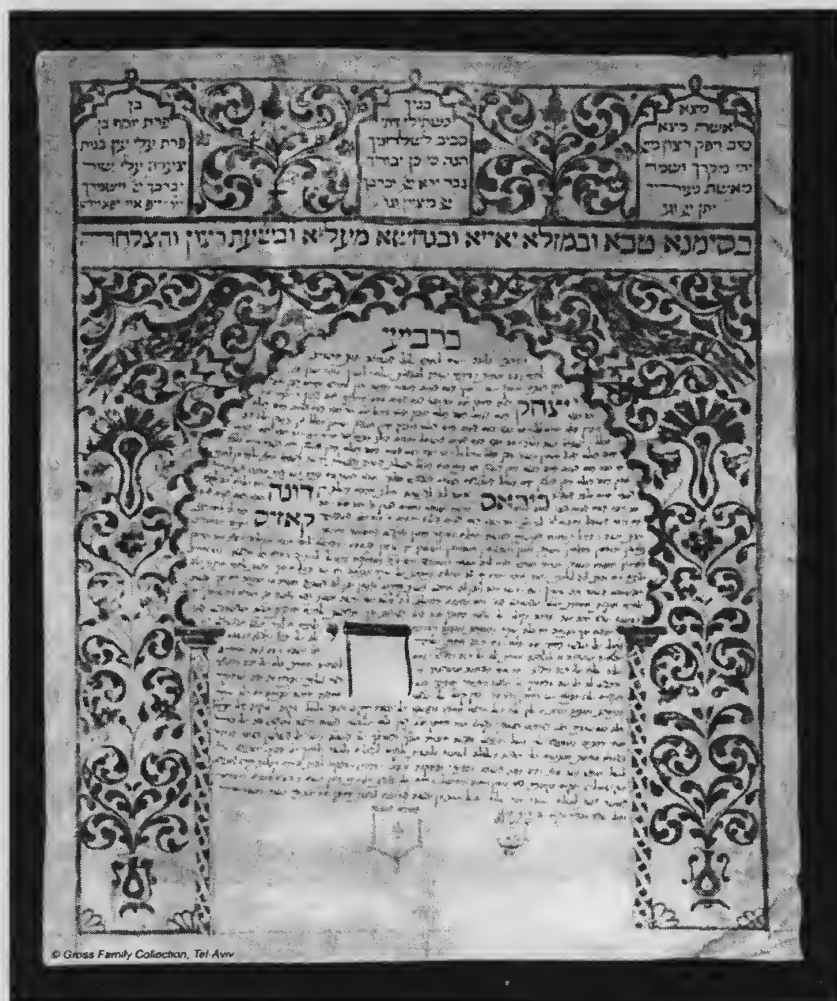
1- عقد نكاح عالية بنت يوسف بن يعقوب بن يوسف وشم طوف بن إبراهيم بن شم طوف بن يوسف وهو مؤرخ برابع تموز 1815، الشاهدان هما مناحيم ناحون وموسى اللاوي، وقد أشهد شم طوف المذكور على نفسه بأن لا يتزوج على عالية وأن لا يغادر إلى مدينة أخرى بدون رضاها:



2- عقد نكاح حاييم بن مسعود بن ميمون بن زاكين بمسعودة ابنة ابراهيم بن حاييم بن داود ازولاي، وهو مؤرخ بالثاني من أيار 1838، بمحضر يسحاق بن الوليد ويوم طوف اللاوي:



3 - عقد نکاح یسحاق بن یعقوب بن فیدال بن حاییم بن موسی بن حاییم بن
 فیدال بن حاییم بن یوسف بن حاییم بیباس بدونة بنت داود بن اللای داوید
 قازیس، وهو مؤرخ بالثالث من أيلول عام 1852 بمحضر یسحاق ناحون
 وإبراهیم الناهوری. وهذا العقد مثلاً یورد سلسلة النسب من یسحاق بن یعقوب
 1852 إلى حاییم بیباس الذي استقدمته الجماعة اليهودية التطاونية إلى تطوان
 سنة 1530:



أما عن وثائق أرشيف الاتحاد الإسرائيلي العالمي بباريس، فنقدم إضافة إلى ما أسلفنا من إشارات حول بعض العاملين في أسلاك الاتحاد من أبناء وبنات الجماعة اليهودية التطوانية، ووثائق أخرى هي عبارة عن تقارير كتبها مدرسو مدرسة الاتحاد بتطوان واصفين لبعض الأحداث، أو معلقين على بعض القضايا. كما ضم جانب منها مراسلات تبادلها هؤلاء المدرسون مع زملائهم العاملين في مدارس الاتحاد الإسرائيلي خارج المغرب.

وقد اخترت نموذجاً من بين وثائق أرشيف الاتحاد الإسرائيلي العالمي، هذه الوثيقة الفريدة والدالة جداً، وقد مكنتني منها الدكتورة فرانسيس مالىنو أستاذة الدراسات العبرية بويلسلي كوليدج بالولايات المتحدة والتي تعمل الآن على إعداد دراسة حول مدرسات الاتحاد الإسرائيلي العالمي التطوانيات والطنجيات ومساهمتهن في تحديث المجتمعات التي عملن بين ظهرانيها. وقد ارتكز عمل الدكتورة فرانسيس على المراسلات المتبادلة بين مدرسات من عائلة بنشمول التطوانية الطنجية.

كتبت الوثيقة باللغة الفرنسية اللغة الرسمية بمدارس الاتحاد الإسرائيلي العالمي، وهي مؤرخة بـ 20 يناير 1889، وتحمل رقم – Maroc LXIV 981، وتحكي قصة حدثت لإسحاق بنشمول سنة 1869. وإضافة إلى الرمزية التي توحى بها الوثيقة والمتمثلة في إمكان انتقاء الجماعة أمام زخارف الوافد الأجنبي كذلك الترنجي الذي يهلك جراء مبارزة موسيقية مع كناري، فإنها تحمل صوراً لتلاحم بين أفراد الطائفة وباقي المجتمع التطواني. والوثيقة هنا تختزل المجتمع التطواني المسلم في شخص أحد أبرز الموجهين له والمؤثرين فيه وهو الرزيني. وتدور مشاهد القصة التي تحكي عنها الوثيقة في بيت استراحة هذا الوجيه بجنان خارج مدينة تطاوين وهو ما يجعل ما تناقلته كتب الرحالين الذين كتبوا عن جماعة يهود تطاوين وانحصر نشاطهم داخل الملاح فقط موضع تساؤل.

وفيما يلي ترجمة لنص الوثيقة الأنموذج:

(هلاك عصفور)

"ليست هذه خرافة؛ إنها حكاية حقيقية حكاها لي شاهد عيان الأيام الأخيرة".

قال: دعيت إلى حفل أقامه عمي بمناسبة عقيقة طفل ولد له. والمعهود أن ميلاد مولود في أسرة ما يحمل على البهجة والسرور فيرتفع الانشغال بالزمن، وينخرط الكل في الحبور والنشوة؛ يغني ويرقص ويستمتع طيلة يوم العقيقة.

تَكُون فريق من الشبابات في صالون بيت العم. كن يغنين واحدة تلو الأخرى بعض المقاطع الإسبانية المسماة Peteneras . لكن المقطع الذي أمتعني أكثر هو ذلك الذي غنته شقراء فاتنة ذات الثامنة عشرة:

Eres tortola en el árbol

Paloma en tu blancura

Un ruiseñor en tu canto

Jilguero en hermosura

وعن كلمة "كناري" دعائي والدي لأجلس بجانبه وقال: "هل تعلم ما هو الكناري؟". قلت: نعم، قال: "هل سمعته يغني"، قلت: "نعم سمعته مرة يغني في الغابة على ما أذكر".

قال: "إذن استمع إلى هذه الحكاية، حكاية كناري أو بالأحرى حكاية ثُرُنْجي كان بطل دراما مؤثرة تيسر لي أن أشهدها".

"في صباح صحو من صباحات شهر ماي، عشرين سنة مضت، كنت أتجول مع أربعة أو خمسة أصدقاء في البادية. ومررنا بجَنَان الرزيني، التاجر العربي الغني الذي تعرفه جيداً. وجدنا الباب مشرعاً. كان المالك جالساً يتفياً ظل تينة. دعانا للدخول فاستجبنا. نهض من مكانه وأدخلنا جنانه وأجلسنا في صالون عجيب حسن الأثاث.. وحسب التقاليد العربية، أمر الرزيني خادمه الأسمر الجميل القوام بإعداد الشاي.

بعد حين عاد الأسمر بصينية من فضة عليها صحن من الخزف الصيني. كان الصحن مليئاً بالحلويات، وكان على الصينية سكرية وإبريق شاي صغير وقنينة عطر، وثُرت عليها كمية معتبرة من الياسمين. ثم ذهب الخادم ليحضر هذه المرة سَمَاوراً عجيباً يلمع كالذهب.

جرى الحديث. كنا قد تناولنا كأس شاي، وكنا بصدد أخذ الكأس الثانية (أنت تعلم أن من عادة العرب منح ضيوفهم كؤوس شاي كثيرة). حينئذ رأيت مضيفنا وقد قام فجأة وأخذ قفصاً كان به ثُرُنْجي عجيب ظل صامتاً منذ وصولنا. علق المضيف القفص في الخارج بجَانِب نافذة كبيرة تُطل على الجنان، وعاد بهدوء إلى مكانه ليتابع المحادثة التي توقفت هنيهة.

ولما كنت فضولياً، سألته.

"أنظر هناك"، قال الرزيني وقد أشار بإصبعه إلى عصفور صغير واقف فوق غصن شجرة في الجنان. "هل تعرف هذا العصفور؟"، قلت: "أست أميزه جيداً". قال: "إنه كناري، إذا أسعفنا الحظ سنحضر واحداً من أجمل الحفلات الموسيقية التي قلما تتاح للإنسان".

لم يكد الرزيني يكمل حديثه حتى رأينا الترنجي ينتفض في هذا الجو المعطر ويشرع في الصغير.
"سيموت في النهاية" قال المضيف.

انتظرنا بدورنا هذه النتيجة المحزنة. بغتة غنى الكناري. آه، يا بني العزيز كم كانت تلك اللحظة عذبة. لقد أحسست كما لو كنت في حلم وقد نُقلت إلى جنة يحرمُ على الإنسان ولوجها. لقد كان ذلك التناغم الموسيقي يذغدغ أذني إلى درجة أنني تأثرت إلى حد البكاء. وبدورهم تأثر أصدقاؤني. لقد كانوا خاضعين لهذا الجمال، كانوا ينتشون بهذه الموسيقى العذبة الجديدة عليهم كليا.
قال الرزيني: "بمجرد أن يقتل الكناري نفسه لن يكون لهذا ثمن. إنه شيء لا يمكن الحصول عليه بكل ذهب العالم".

استجمع الترنجي قواه، وعاد يغني بدرجة أقوى. كان يقفز داخل القفص بين هذا الحاجز والآخر. كان يرسل ألحانه الخفيفة وكأنه كان يبحث عن تجاوز خصم عنيد شديد الخطورة.

كان يبدو أن الحفل الموسيقي سيمتد لبعض الوقت؛ غنى الكناري من جديد. وكنا مازلنا مسلوبين بهذا التناغم العذب حين رأيت الترنجي يطرق رأسه فجأة، ويدسه بين جناحين المسدلين، ويسقط كما قطعة رصاص.

"مات" "الآن" صاح العربي بصوت متوحش من غير أن يبرح مكانه. وقفت على الفور لأتبين صحة قوله. فتحت القفص. كان الترنجي قد مات. وفي نفس الآن غادر الكناري الغصن وطار إلى الغابة المجاورة."

إسحاق بن شمول

أما الوثائق العبرانية لعائلة الرزيني فهي عبارة عن 300 وثيقة، وهي إما بالعربية اليهودية أو بالعبرية أو بالإسبانية اليهودية. وقد أمدتني بها مشكورة الدكتورة نادية الرزيني، ووعدت بتقديم فهرس لها مع ترجمة، وقد أشرفت على الانتهاء من ترجمتها إلى العربية لتصدر في المستقبل القريب إن شاء الله. وهذه الوثائق صادرة ما بين سنتي 1817 و1869، جزء منها متعلق بالسيد محمد بن أحمد الرزيني قنصل المغرب في جبل طارق (1844)، ويتعلق جزء آخر به أيضا وهو صادر بين سنتي 1820 و1830 بتونس ووهران، بينما يتعلق جزء ثالث بأخيه أمين أمناء طنجة، وضم جزء رابع إشارات إلى أخ ثالث للأول كان أمينا بميناء الصويرة.

وتتجلى أهمية هذه الوثائق في تنوع المعطيات التي تقدمها فقسم منها ذو طابع عقاري تعلق بشراء الرزيني لبعض الأملاك من أهل الذمة بتطوان، وهذا القسم غالبا ما ضم قسما عربيا مرفوقا بأصل الملك باللغة العبرانية. ومن خلال هذا النوع من الوثائق يمكن نسج سلسلة من الأمور المتعلقة بملاح تطوان، فتلك

الرسوم غالبا ما تقدم حدود الملك، والجوار وأسماء الملاك المجاورين، وتُعاقب انتقال الملك المشتري بين أفراد وأسر وعائلات، وثمان الشراء، وهل تم نقدا أو مبادلة. وكل هذه المعطيات تسعف في رسم أجواء الملاح في حقبة محددة. مما يرصد تطور الجماعة ويحصر نسب الوافدين عليها والطارئين. وتسعف عقود الأنكحة المشار إليها أعلاه في ضبط توقيعات عقود العقارات المشار إليها كما يمكن أن تكمل المعطيات البيوغرافية التي تقدمها لأفراد الجماعة من ذوي تلك الأملاك. كما أن وثائق العقارات تلك تسعف في ضبط وضعية الذمي البائع ومكانته بين أفراد الجماعة.

وعكس قسم آخر من الوثائق العبرانية لعائلة الرزيني أخبارا ذات طابع شخصي بين أفراد نفس العائلة، وقد ورد باللغة العبرانية لأن ناقلي تلك الأخبار غالبا ما كانوا تجارا يهودا يعملون لصالح هذه العائلة أو بعض وكلائها داخل وخارج المغرب.

ويجيب قسم آخر من وثائق الرزيني عن جزئيات وردت في وثائق لنفس العائلة وردت باللغة الإسبانية. وغالبا ما ورد هذا القسم من الوثائق باللغة الإسبانية اليهودية الملتزمة للخط العبراني الأندلسي في الكتابة.

والخلاصة أن المصادر العبرانية لتاريخ تطاوين متنوعة، وكتابة تاريخ لهذه المدينة من دون استحضار هذه المصادر مع باقي المصادر العربية والأجنبية يقدم معطيات مجتزأة. وعليه فإن التاريخ الممكن والقريب من الحقيقة لهذه المدينة ينبغي أن يتبنى مقاربة عبر ثقافية تتجاوز إلغاء أو تهميش أي مستوى يمكن أن يسهم في إدراك واقع من الوقائع الممكنة التي ترسم تاريخها. ولعل ما نقوم به منذ سنوات من جرد للمصادر العبرانية لتاريخ المغرب يدخل في هذا النطاق. ونحن الآن بصدد إعداد بحث عن المقبرة اليهودية بتطاوان لصالح مؤسسة إدمون عمران المالح، والجدير بالذكر إن هذه المقبرة مصدر هام من مصادر التاريخ للجماعة اليهودية التطاونية، وهي فريدة من نوعها إذ ضمت أشكالا لقبور تشبيهية لا مثيل لها في مقابر اليهود في العالم. كما أن تلك المقبرة القشتالية تعكس كل مراحل تطور الجماعة اليهودية التطاونية، وتعكس التيارات الفكرية التي سادت فيها من إنشائها من سنة 1492 إلى الآن.

